

امين ناجي

لن نعيش ذميين...

آفاق مشرقية (1)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الاولى 1979

امين ناجي

لن نعيش ذميين...

"فلن تجد لسنة الله تبديلا
ولن تجد لسنة الله تحويلا"
القرآن 43/35

المقدمة

... وانفجرت في الثالث عشر من نيسان من سنة 1975. وكأنما النار المحقونة رأت لها مسربا في ذلك اليوم، فكان البركان الذي جرفت سوائله كل شيء في طريقها.

بين مَنْ وَمَنْ قامت هذه الحرب؟ هل صحيح أنها اندلعت بين اللبنانيين والغرباء؟ أم فيما بين اللبنانيين، ولكن عن طريق الغرباء وبواسطتهم؟

لقد ثبت أن الحرب قامت بين مسيحيي لبنان، من جهة، والفلسطينيين وحلفاءهم اليساريين اللبنانيين والدوليين، والمسلمين العرب، وفلول من الباكستانيين والصوماليين واليمنيين والأترك... بموازرة فعلية ومادية وغير مشروطة من قبل المسلمين اللبنانيين وبتغطية سياسية منهم، من جهة ثانية.

فالحرب في حقيقتها، كانت بين مسلمي لبنان ومسيحييه. ولكن، لماذا هذه الحرب فيما بينهم؟

لقد قيل الكثير عن أسبابها ومسبباتها. وقد تكون جميعها صحيحة بنسب متفاوتة في الحدّة والتأثير. إلا أن العنصر الأهم فيها لم يعط له حقه من التركيز والتحليل، ولم يوضع في المرتبة التي يفسر انطلاقا منها، غير حدث وأمر وموقف. أو قل، لم يُردّ "الاعتراف" بهذا العنصر ولا الاقرار بواقعه.

سنرى أن خلفية هذه الحرب، سببها البعيد - القريب، الغائب - الحاضر، هو التجاذب العنيف القائم بين موقفين متعارضين جذريا:

موقف المسلمين الذين لا يحق لهم، ضميريا، إلا الحياة في دولة إسلامية، تسوسها الشريعة الإسلامية، ويكون حاكمها مسلما، والمسيحيون فيها "أهل ذمّة" (ولبنان، بحكم تكوينه وبموجب الهدف من تكوينه، ليس دولة إسلامية).

وموقف المسيحيين الراضين رفضا باتا بقبول نظام "أخل الذمّة". فهم يرفضون أن "يتسامح" المسلمون معهم لجهة تركهم يحيون إيمانهم في "داخل" الكنائس، وتأمينهم على أموالهم وأرزاقهم تحت حماية المسلمين وفي ذمتهم بالشروط العُمريّة أو بما يشبهها ولو بقدر قلامة ظفر. "التسامح" هذا قمة في الاستعلاء

والكبرياء. ومسيحيو لبنان رفضوه ويرفضونه أبداً، وحقهم في وطنهم وفي الحياة فيه أحراراً ومواطنين كاملي المواطنة حق طبيعي مقدس، وليس هبة ولا منة من أحد.

هذا هو جوهر المأساة.

أما ما سوى ذلك فهو امش وطوارىء تشكل عنصر تفجير لبرميل البارود الجاهز، وجوّ فتنة لمجتمع مفلوع في ضميره وفي تطلعاته. فمواضيع "المحرومين" و"المشاركة في الحكم" و"المحافظة على الثورة الفلسطينية" ادعاءات وذرائع فحيب. قد يزول الحرمان – إذا ما كان من حرمان – وتسوى قضية المشاركة – إذا ما كان من قضية للمشاركة – وقد يعود الفلسطينيون الى وطنهم، ومع ذلك فستبقى القضية اللبنانية عالقة ما لم نفهم موقف المسلمين ذلك، البعيد والعميق، والذي سيتخذ من أي عامل آخر في المستقبل سبباً مباشراً لانفجار جديد.

إن هذه الصفحات ترمي الى إبراز خلفية هذا الموقف، والى رواية القصة التي جسّدتها بكاملها.

فالحقيقة، ولو مرةً، سبيلنا الوحيد الى المستقبل المنشود.

لقد عشنا بما فيه الكفاية في أجواء النفاق والرياء والتقية...

حاجتنا الملحة اليوم هي في تسمية الأشياء بأسمائها، والتشخيص الصادق للقضية اللبنانية، بدون نية إدانة أو توزيع تهم.

ففي ضوء الحقيقة، ندعو الى التأمل والى استيعاب العبر والدروس.

أما إذا أصرّ بعض الناس – عن نية حسنة أو عن قصد خبيث – على المهزلة المبكية التي أنزلت ستار المسرحية بين بصيرتنا والحقائق، فلم يروا هنا سوى نكء لجروح الماضي، فإنهم يضعون أنفسهم في صف الرافضين مواجهة الأمور بموضوعية، والعاملين على إبقاء النار مضرمة بين المسيحيين والمسلمين.

لذا سنتساءل:

كيف تصرف المسلمون في خلال الحرب في لبنان؟ وما كان موقفهم من الدولة اللبنانية منذ إعلان "لبنان الكبير" في سنة 1920؟

وهل إن تصرف المسلمين هذا تجاه المسيحيين، كان جديداً بالنسبة للمسلمين أم أنه استمرار لواقع تاريخي طويل؟

وإذا كان كذلك، فما هي جذوره العقائدية الدينية؟ والى أي مدى تتحكم نظرة القرآن الى المسيحيين بهكذا تصرف؟

وما هي الجذور العقائدية الدينية، أيضاً، التي تلزم المسلمين بإنشاء مجتمع

سياسي إسلامي، أي دولة إسلامية، يكون المسيحيون فيه "أهل ذمّة"؟

وسنلاحظ، أخيراً، فشل المحاولات الحديثة التي قام بها المسيحيون والتي

رمت الى جعل المسلمين يتخلون عن عقيدة "اللامساواة" بين المسلم وغير المسلم.

إن هذه الصفحات تأمل المساهمة في التقاء النيات الصافية على استئصال الشرّ من جذوره والقاء بصيص نور في مآهات الظلمة التي تلقنا.